بقلم الاب فردينان توتل اليسوعي

حزيران ، تموز ، آب ، ١٩٢٦ : الكتاب الاخضر ينتشر من بكركي ، فحديث وسكوت وخشية ؛ الوفد السوري يعالج امر المعاهدة في باريس ، وفي باريس ايضاً يجاهد المطران مبارك في المحافظة على حدود لبنان وعلى حقوق الاقليات المسيحية ، وفي وزارة الخارجية تحت نظر السيد ثيبنر وبحضور الكونت دي مارتل ، يتداول وزراء الحربية والطيران والبحرية شؤون التقارير التي عليها تبنى شروط المعاهدة العتيدة ، فجاملات وتوترات وانقطاع واتصال ؛ بينا ان الدروز في جبلهم ينقسمون بعضهم يريد الوحدة السورية واندغام بلادهم بها ، وبعضهم يفضل البقاء على الاستقلال القديم ؛ وبطريرك الروم الارثوذكس يخابر رئيس اساقفة كانتوربري في القضية الفلسطينية ، وصور صيدا وبيروت تظاهر في سبيل العرب المجاهدين في مقاومة الصهيونية ؛ والبوليس في لبنان يتقفى اثار الحزب القومي السوري فيعتقل زعماءه . . .

فجوّ السياسة قاتم في البلاد ، الا في دمشق حيث الفرح والمرح وقد مضت ايام الاعتصاب واقبل موسم المعرض ، فهيا بنا نزوره في ظلّ السلم والطمأنينة .

يذكر قرّاء كتاب «الف ليلة وليلة» حكاية الشاب الظريف ، السجين في القصر المنيع ، القاضي ايام سجنه في زيارة القصر ، يفتح منه كلّ يوم غرفة يتسلى في التفتيش عن محتوياتها من كنوز وزخارف وساير ما يبهج النظر ويشرح الفؤاد . وكأني بالقصة الخيالية التي ابتدعها واضع الف ليلة وليلة تتحقّق

فينا وفي كل من زار معرض دمشق . وشتّان بين الحقيقة والخيال، والحقيقة تفوق الخيالَ عظمةً وجمالًا وفخامةً .

قد اختارت الادارة اجمل بقعة في دمشق، وهي البستان او المنشية المنبسطة شمالي جامع السلطان سليم ، على ضفتي نهر بردى وجانبي الطريق المؤدية الى بيروت ، ووضعت فيها المعرض في متّسع من الارض مساحته تزاهي السبعة الهكتارات .

واذ ان وصف معروضاته قد يقتضي سِفرًا طويلًا ، فلا بدَّ من الاختصار بلفت النظر الى اروع ما وجدناه منه في المدرسة التجهيزية ومنه في دار الآثار ومنه بين المعهدين . ففي الاولى خاصةً مصنوعات الشرق؛ وفي الثانية، مع آثار البلاد السورية، معروضات وزارة الصحة والزراعة والتعليم؛ وفي الثالثة مع الملاهي والمقاهي المبتطات من اشياء يحول ضيق المكان عنها في مدرسة التجهيز او في دار الآثار فافرزت لها سرادقات ومقصورات اختصَّ بها اصحاب العرض لاظهار موادهم . وانا سنصف سائر ما وقع عليه نظرنا ، آخذًا بالدخول من الباب الشمالي . وسوف نهمل الكثير ولا نذكر الا القليل ونتساعد على الكلام بما لدينا من اوراق ونشرات التقطناها لقطة العجلان من العارضين .

ولا نتّبع الترتيب المطلق[1] في الوصف . وربما كنا في المدرسة التجهيزية ثم خرجنا منها ورجعنا اليها شأن الزوّار اذا فاتهم شيء او اعجبهم شيء فعادوا عليه . انا نبتدئ بالمصنوعات ، ثم نأتي على العلميات ، ومن ثم ننتهي بالآثار .

المصنوعات واجهزتها — الادارة — الزوار

الساعة العاشرة، شمس تموز تشتعل في كبد السماء، وترمي اشعتها شرارات لاذعة تلتهب لها ضياء آلات الاطفاء ، وخوذات رجال المطافئ ، وهم عند الباب بالاستعداد الدائم لتلبية طلب المساعدة من دوائر المعرض ، وفي كل غرفة ورقة معلقة على الجدار تنبه الى ما يجب عمله اذا ما نشب حريق في المكان .

---

١) انظر في آخر المقال رأينا في ذلك الترتيب .

عشرات الاعلام تخفق لهب الارياح ، وتعلن على رؤوس الملا اسماء الدول والمقاطعات التي اشتركت بالمعرض وحنّت الدولة السورية بعاطفة الاخاء او الصداقة : لبنان ، وجبل الدروز ، واسكندرونة ، وشرقي الاردن ، ومصر ، والسودان ، وايران ، وتركية ، وافريقية الشمالية[1] .

قليلون هم الزوّار قبل الظهر ، والمجال واسع منفسح امامنا ، والهدوء يساعد على النظر وعلى استيضاح الغاية التي توختها الادارة من اقامة هذا الموسم في دمشق .

دمشق عاصمة الامويين ، شهدت على ايامهم اسواق ومتاجر ذكرها المؤرخون . قال الاب شيخو (المشرق ٢٠ ص ٨٦٦) :

« لما ابتنى معاوية قصره المعروف بالخضراء افرز فيه قسماً لناجة الحرير ووشي الثياب الملوكية وهو ما يعرف بدار الطراز استدعى لاستحضارها صنعة السوريين النصارى فخرجت من معامله اثواب من الحرير والديباج والابريسم كان يفتخر الملوك والاعيان بلبسها ، ينسجون بخيوطها الذهبية الملوّنة نقوشاً مختلفة وكتابات شتى مزركشة . »

دمشق عاصمة الشام على حدود البادية ، ما احراها بان تحيي ، بعد مرور الاجيال ، مواسم العرب واسواقهم منذ عهد عكاظ وذي المجاز ومَجَنة[2] ! كانوا يتخذون فرصة المباذلات لقطع المفازات ، وعقد المجتمعات ، ومباشرة الاعمال السومية التي لم يكن وسيلة للقيام بها الا في تلك المواسم الى ان الغى محمد الاشهر الحرام فبادت الاسواق في بلاد الجنوب ، بينما كانت عامرة ناجحة في ما بين النهرين ، اذ كان جدودنا السريان يقيمونها في مناسبة الاعياد الدينية ، وعلى الاخص في عيد القديس توما في شهر اذار ، في مدينة الرها ، فيبيعون ويشترون سحابة ثلاثين يوماً ، ولم يكن عليهم اذ ذاك دفع ضرائب لاشتراكهم

١) لقد لاحظنا غياب فلسطين من المعرض ، كما لاحظ العارضون قلة عدد الفلسطينيين بين الزوّار ؛ ومن الحوادث السياسية الحالية حجّة بيّنة .

٢) راجع دائرة المعارف الاسلامية في مادة عكاظ للاستاذ فانسينك – ولامنس في « مهد الاسلام » ص ٢٦٣

في السوق[1].

اليك مركز الادارة وهو عند مدخل المدرسة التجهيزية . فالرئيس هو وزير الزراعة والتجارة ، والاعضاء هم مدير المعرض العام ، ورئيس بلدية دمشق ، ومدير الزراعة ، والمصالح الاقتصادية ، ورئيس مهندسي الاشغال العامة ، وممثل البعثة الافرنسية ، ومستشار المالية ، ومستشار الزراعة ، ورئيس مهندسي البلدية ، ومدير المعرض الفني ، ورؤساء غرف الصناعة والتجارة والزراعة بدمشق ، وممثار الصناعات الكبرى ممن عيّنتهم اللجنة . ان الغاية المتوخاة من المعرض تتجلى عند مشاهدة البناية الفخمة الموضوعة مركزاً له اعني بها المدرسة التجهيزية المبنية بالفن العربي الخالص[2].

تلك الغاية انما هي توجيه الانظار الى ما بلغت اليه البلاد الشرقية عامةً وسورية خاصةً من التقدم في الصناعات الاهلية ، وفي مختلف انحاء الاقتصاد من زراعة واستثمار وتصدير وتوريد ، مع الاشارة الى عمران البلاد في ظل الانتداب وتنظيم الدوائر ، وتمهيد سبل العمل في سائر ما يعود على السكان بالخير في علم الصحة ومؤسسات التعليم في المدارس ، والتنقيب في جميعات العلوم الاثرية والتجارية وغيرها .

---

١) راجع ص ٩ — ١٠ من ابحاث بور كلو في مذكرات المجمع العلمي للكتابات والآداب الجميلة *Mémoires présentés à l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres* 2e Série. T. V. *Etudes sur les Foires* par Félix Bourquelot.

٢) المعرض من عرَض . هو موضع عرض الشيء واظهاره . وجاء في القاموس بكسر الراء ، لا بفتحها كما نطقت به العامة . فيه توضع المصنوعات والمخترعات قصد المناقصة والمباراة . وقد يكون المعرض عاماً لمنتوجات بلاد كثيرة فتبرز فيه منتخباتها في صنف واحد او في صنوف كثيرة . ويرادف المعرض لفظة سوق ، ومتجر ، ومصرف . وقد يكون المعرض عاماً اذا فُتح لكل ظاهرة من ظاهرات المجهود البشرية . وقد يكون رسمياً اذا كان منشأ بامر الحكومة مباشرةً . وقد يكون تحت الحماية الرسمية اذا أنشئ جمعية جماعة غير رسميين ولكن تحت حماية الحكومة . وفي الاجمال ان غاية المعرض هي التعريف برقي البشر فتفتح المعارض لجميع الاشياء والمواد ولها منبتها النباتية . اما السوق فقد تكون لعرض الاشياء الاولية او المصنوعة وذلك لغاية تجارية ولعقد البيع والشراء . ومن وصفنا سوف ترى ان معرض دمشق كان سوقاً ايضاً .

العامة والخاصة تدفقت تجاريها عند الاصيل في اروقة المعرض . رأينا العلماء المتمدين ، والنساء المحجبات والسافرات ، يقفون عند المعروضات ويدرّون ويتنابهم الصغار والكبار من اولاد بلباس المدن او بجلباب القرى ، وغيرهم عشرات من رجال المهن الحرة والكتابة كالموظفين بالبدلة والبنطلون ، وغيرهم من اجانب كالمغاربة ، واهل ايران ، والعراق ، والارمن ، والجركس ، والافغان ، والافرنج . اقبلوا ، على مختلف الازياء ، يحومون حول المعروضات حوم النحل حول الازهار ، ونحن واياهم نمتع النظر بالوف الاشياء بهجةً للعيون ، ومجذبةً للزبائن .

هي نماذج محصولات ما جنته يد الانسان ، نقف عندها ونقابل بينها وبين غيرها من محصولات بلاد الجيران ونقابل بينها اليوم وبينها امس ، ونستقصي من المقابلة دليلًا على ما سيخبئه لنا الغد من عنوان الحاضر . نلقي نظراتنا على الجداول الموضوعة في غرف الاحصائيات ، فنستهدي بها الى معرفة عدد الانعام ، ومحصولات اهل الوبر في السنوات التي انقضت منذ بدء الانتداب الى يومنا في بلاد الفرات ، فنمرّ على الصحراء وننظر اليها نظرات الطائر المحلّق فوقها من الاعالي فنرى تقدمها وازدياد مظاهر الحضارة فيها بين حقبة وحقبة ، ونلمس مصنوعات الصوف الابيض ووبر الابل من البسة وسرجة ورياش وفرش .

أينَ الوجيه الكريم من اهل بلادنا مَنْ توحي له اريحيته ان ينقل على نفقته الى معرض الشام بعض تلامذة القرى فينظروا مصغرات صور وتماثيل قلعة حلب ، وجسر دير الزور ، وقلاع تدمر وغيرها من الآثار التي لم نكن في صبانا نسمع بذكر اسمها لجهل الناس بها ، وقد صارت اليوم موضوع معارف تلامذة المدارس الابتدائية !

ولا يخفى على ذوي البصائر ان الشغل في المعرض لشاغل عن غيره من أمور السياسة العتيمة ، فاتى موسمه موافقاً جداً لتخفيف وطأة الكابوس السياسي الذي شلّ حركة العمل في دمشق ، ففسح المعرض مجالًا جديداً للحياة العمرانية وساعد على تقريب العقول والقلوب وتأليفها على ضفاف بردى بين عزف الموسيقى

ومهبات رياحين الزهور ، عند دواليب الملاهي ومقاصف المطاهي . هـا ان عمالة المطاعم يدعونكم الى تناول الطعام ، تفضلوا . . .

ولكن ليس الوقت للغداء . بين الناظرين اولاد صغار وقفوا عند انابيب النفط الفولاذية ، فوقفنا واياهم معجبين بما هناك من آلات رفع المياه وتوزيعها .

لم نسمع صوت الحيطان عند ماكنات التفريخ ، لكن صورة الصوص الابيض التي قدّمت لنا الجديرة بان تجذب لوكلاء الماكنة زبائن كثيرين . كلها ذوق تلك المقصورة المعروضة فيها ماكنة سنجر المخترعة خاصة للبنات . ولا تظنوا ان البنات الصغيرات لا يستعملن هذه الماكنة الا للعب ، فانها بالحقيقة تخيط خياطة اعتادية بغرز متساوية .

ومن المصنوعات التي لفتت نظرنا نماذج الاعضاء البشرية كاليد والرجل الاصطناعية ، وقوّامات الظهر المكسورة ، والرباطات لتجليس الرجلين ، ورباطات الفتق ، كلها صنعت طبقاً لمطالب الفن الصحي الحديث . واضف اليها ماكنات مزج الملط المحرّكة إما بالكهرباء وإما بالغاز ، وفيها الآلة الطاحنة ، والمازجة ، والرافعة ، وغير ذلك كآلة صنع البلاط والقبيقاب . وسائر ما يحتاج اليه البنّاء ، واصناف الورق والكرتون ومصنوعاتها من دفاتر تجارية ومدرسية ، وعلب للمجوهرات الفضية ، وآلة صحية لقتل الذباب والحشرات المضرّة ، وآلات الكناسة والتنظيف والحرث والسقي والحصاد .

آلات الريّ ورفع الماء ! انها ، على كثرتها ، لا تزيد على احتياجاتنا :

من المعلوم ان المدن الكبرى كبيروت ، وحلب ، ودمشق وغيرها كانطاكية ، واسكندرونة ، واللاذقية ، وحمص ، وصيدا ، والسويدا ، وطرابلس ، والكثير من مواضع الاصطياف قد تجهزت بالآلات اللازمة لجرّ المياه ، ولكن لم تزل اعمال المجاري في مياق التنفيذ ومشاريع المسالخ والرشّ والنظافة والاطفاء والصحة تقتضي الكيلومترات من الانابيب ، والاقبال على تلك الآلات فسح مجالاً للدعوة اليها .

واذا قطنا الى كون مجموع القوى الكهربائية المولّدة في البلاد المشمولة بالانتداب قد بلغت ، سنة ١٩٣٥ ، ٣١ ٠٠٠ ٠٠٠ كيلوات بالساعة لا نعجب

لوزيتنا في ساحة المعرض مختلف انواع المناديل والمحركات والآلات المولدة الكهرباء . ومن المعلوم ان في يومنا كل المراكز الآهلة من مدن او قرى او معايف هي مرتبطة بالاسلاك الكهربائية فتعول عليها ليس فقط بالاضاءة ولكن بتحريك شتى الآلات[1].

بين زوّار المعرض شبّان حوران بزيّهم الفلّاحي يقفون امام المصاطب عند مقصورات شركات اعمال التلبيس بالنكل والنحاس على الكهرباء باحدث طراز وعند معروضات شركة مصوغات « الجمل » المصرية ، وقد اخرجت صنعة جميلة كانواع الطباقم الصالحة للضيافة من فناجين وكؤوس بالمعدن والبلور وغير ذلك من محاسن الصياغة الملبّسة بالذهب من سلاسل وادوات التمشيط والزينة .

وفيما يجتاز الزائر من غرفة الى غرفة تأخذه الريبة والحيرة في تفضيل صنف على صنف ، ومادة على مادة . ولكن الاقمشة على اختلاف انواعها من الحرير والكتان والمخمل والشاش الابيض البسيط والمزركش والنسيج الفاخر المقصّب والمفضّض والمذهّب تنال ، في نظرنا ، الاسبقية بكثرة اصنافها وحسن اتقان صنعها وتشكيل تصاويرها وتلوين رسومها ، فالنظرة اليها فتنة ، ولا يسعك الا تقدير قيمة الجهود التي بذلها اصحاب تلك المصانع ، والتحقيق ان تلك الاقمشة ليست دون ما يرى من امثالها في متحف ليون الحريري وليست دون ما يرسله الينا اليابان من اجمل مصنوعاته ، فقد برزت في المعرض كأزهرة في بستانها والثمرة على غصنها فمادت واحيت ذكرى الايام التي اطنب فيها بمدح مصنوعات الشام الشريف الادريسي الرحّالة الغربي . فانه زار بلادنا في القرن الثاني عشر ، ولم تحل الحروب الصليبية دونه ودون البلوغ الى دمشق بالسلامة كما انها لم تقف في سبيل الحركة الفنية الصناعية في الشام ، قال :

« ومدينة دمشق جامعة لصنوف من المحاسن وضروب من الصناعات وانواع من ثياب الحرير كالخز والديباج النفيس الثمين العجيب الصنعة والعديم المثال الذي يُحمل منها الى كل بلد ويتجهز به منها الى كل الآفاق والامصار

---

١) راجع نشرة : ١٥ سنة في حكم الانتداب ، المطبعة الكاثوليكية ، ص ٤٨.

المصاقبة لها والمتباعدة عنها ومصانعها في كل ذلك عجيبة تضاهي دباجتها بديع دباجة الروم وتقارب ثياب دستر (وفي غير نسخة دستر) وتنافس اعمال اصفهان وتشف على اعمال طرز نيسابور من جليل ثياب الحرير المصفتة وبدائع ثياب تنيس وقد احتوت طرزها على افانين من اعمال الثياب النفيسة ومحاسن جمة فلا يعادلها جنس ولا يقاومها مثال »[1].

مَن لنا بالساعات الطوال نقضيها في فك احرف النشيد الوطني السوري او نشيد المرسليز وقد خطّه قلم الفنان الماهر على حبة الرز !

او هل تلام على تمداد اطايب المأكولات التي عرضت شهوة للناظرين ! ان في معرض الشام من الحلوى ما يستهوي العين ويؤدي من اسمائه مادةً وافرة لقاموس اللغة . واعلم ان من الحلوى المعروضة بعضها ، منها المكفولة لستة اشهر وهي : طاتلي الزهر ، التفاحية ، الجزرية ، الشرابات ، مربا البلح ، مربا المشمش.

ومنها المكفولة لثلاثة اشهر وهي : البقلاوى ، البرما ، الفيصلية بفستق، كل واشكر بفستق ، الغريبة بفستق ، المهروسة باللوز والفستق ، المهروسة بجوز الهند ، قراص بسيوه.

ومنها الحلويات بالقشطة وهي: الكنافة بنارين، ورد الشام ، زنود الست ، الفيصلية ، حلاوة الرز ، حلاوة الجبن ، استانبولية وبناجة.

اما المطور والطيوب وانواع الصابونات فكلها تنبئ بتقدم حثيث في التحليل والتركيب واستحصال منافع النبات والزيوت.

ولكن هيا بنا وعجّل ... نظرة على مبسوطات انواع الجلود من احذية واكياس وامتعة وغيرها مما قطعت صناعاته شوطاً بعيداً في التقدم ، فصارت اسعاره متهاودةً للغاية ، وغلبت مصنوعات البلاد الاجنبية.

---

١) من كتاب الادريسي في وصف فلسطين وسورية ، المطبوع على يد الاستاذ يوحنا گيلدميستر ، في بون سنة ١٨٨٥ ، ص ١٥

لبنان — جبل الدروز — تركية — مصر

على الرادق اللبناني يخفق العلم المثلث الالوان المزين بالارزة الخضراء . هناك الصور التاريخية ، ونماذج الصناعة اللبنانية من عطور ، وصابون ، ومأكولات . لقد اجمع الناس على ان نصيب لبنان في المعروضات كان زهيدًا على كون المجال فسيحا لتبيان حياة لبنان الاقطاعية المستقلة في ظل امرائه ، وذلك بعرض مشاهدهم التاريخية شأن المشهد المعروض في قاعة جبل الدروز . او لم يكن هناك موضع لجرس من اجراس بيت شباب وهي من مصنوعات لبنان الوطنية ! ولا تعرف لاصحابها انداد في الشرق !

لقد بُذلت عنايةٌ خاصة في ان يكون البهو المخصص لجبل الدروز معرضاً قائماً بذاته شاملًا اهمَّ ما يعرف عن حياة الدروز من لبس وعادات في الحياة العائلية والاجتماعية والمدنية .

في صدر القاعة نُصبت تماثيل لشيخ وشاب وابنة من الدروز وجوهها جميلة من الشمع الملوّن بالبياض البشري الطبيعيّ المتورّد الحي . وعليها ملامح الجنس الاشقر . فهل يا ترى اراد مرتب المعرض ان يشير بذلك الى الاسطورة القائلة : قد يكون الدروز من شعوب الشمال او من اصل افرنجي ! مهما يكن من حقيقة الامر فهناك في الجدار نسخة لأثر قديم شاهد على قدوم امرأة من بلاد فرنسة الى زيارة بلاد الدروز منذ القرن الثالث الميلادي ، وهناك عدد وافر من الخرائط واللوائح المفيدة لمعرفة حركة الترقيّ في الصناعة والزراعة والتعليم في جبل الدروز . وتماثيل صغيرة لبنات المدارس اللابسات الزيّ الدرزي : التنورة الطويلة ، والغطاء الابيض على الرأس ، والصدرية المتخايقة عند الخاصرة ، يشتري السياح تلك الدمى والالاعيب ذكرى لزيارتهم وعنوان ترقي المرأة في العصر الجديد .

وهناك مجموعة الاسماك التي تعيش في برك جبل الدروز وتأكل حشراته لكي تصلح مياهها للشرب .

في الخزانة البلورية اصطفت مصغرات تماثيل عساكر الدروز في قيادة الضباط

الافرنسيين . اجسامهم ولباسهم وخيولهم واوشحتهم صنعت من رصاص . وان ذلك الهندام والترتيب مع لوائح الاعمال الصحية والتعليم والادارة لداع الى المقابلة بين سنة ١٩٢٥ وسنة ١٩٣٦ . فكيف اثمرت ثورة الجبل تلك الثمار العمرانية ! لا نلبث ان نشاهد على اوجه الزوار من الدروز ملامح المفاخرة بحالة جبلهم . وان ترقي الحاضر ومحاسن النظام الحالي لتنسيهم ما اساءوا فهمه بالماضي .

اما المعرض التركي فاستقبلنا فيه شبّان متبرجين بالبرنيطة وقدموا لنا باحترام نماذج المعروضات . ولعمري ان هذه الظاهرة البسيطة الوضيعة من جانب من كانوا قبل العشرين سنة قابضين بالعجرفة على زمام الامر في بلادنا لتدعو الى التفكير بزوال الاشياء والزمان وتغيّر الاحوال ، وسبحان الباقي ! الاثمار والأنعام التركية والفحم الحجري التركي ، والجوز التركي ، والقطن التركي . لكل صنف أفرزت نشرة باللغات الافرنسية والالمانية والانكليزية . وفي السرادق التركي عرضت المحصولات من الصوف ومصنوعاته ومن اواني معدنية ومأكولات .

الغرف المخصصة بمصر قد تكون خير ما خصّص من امثالها لبلد من البلاد الشرقية .

من جملة ما رأينا فيها نماذج تتلو تماثيل الفن المصري القديم ، وصور اهم الاثار من قديمة وحديثة كأهرام الجيزة ، ومعبد ابيس في جزيرة فيلا ، وجامع السلطان حسن ، وجامع الرفاعي ، واحد الابواب الكبيرة لمعبد كرنك بالاقصر ، ومعبد ادفو ، وجسر اسماعيل الواصل بين حي الجيزة والقاهرة ، وميدان ابراهيم باشا حيث دار التمثيل الرسمية وصورة الجامعة المصرية التي اسسها فؤاد الاول ، وصورة القلعة التي بناها صلاح الدين ، وجامع محمد علي مؤسس العائلة المالكة ، وصور جامع الازهر والقناطر الخيرية التي تعود على مصر بالخير العميم اذا حجزت المياه ووزعتها بحينها وحالت دون فيضان النيل وتخريبه الارياف وضياع مياهه في البحر .

القسم الزراعي — اعمال المساحة

احلى ما تمتع به نظري واطمأن له بالي المعروضات الزراعية: الحنطة والشعير والعدس والاصواف والزيوت والقطن والكتان والسمن على اختلاف الانواع والاجناس والمصادر، من دمشق وحمص وحماة وحلب ودير الزور وانطاكية الخ. هي ثروة البلاد واكثر المزارعين، فيا بارك الله! وان بلاداً فيها ما رأينا من نماذج الحبوب والمحصولات، فضلاً عن الطيور والاسماك والانعام، لجديرة بان تستهوي قلوب سكانها فلا يرغبون عنها في غيرها. حاولت ان اكتب لائحة انواع الحنطة فاذ هي تعد عشرات منها: الاموية والحورانية والحمراء والسلمونية والريسية والبياضية الخ.

اليك انواع بذر الكتان وبذر القنب وبذر السمسم والفصة البقدونسية والملوخية وبذر الكرنبه والشوندر الملفي العادي والسمسم الابيض والكرسنة النطانية والجلبانية والبلدية.

حيّ لذكرها عطر الحقول والارياف منبعثاً من صفوف معروضاتها وأمل خيراً من البلاد!

اليك الطيور المعجزة: البطّ الفراتي والخضري، وعشرات الانواع المصفوفة المرفوعة على الرفوف سفراً مفتوحاً لمطالعيه لكن اسمائها لم تُرسَمْ الا بالافرنسية. وكذلك عدد عديد من الاثمار والحبوب وليس لها اسم خاصّ باللغة العربية.

امّا اعمال المساحة فهي من المشاريع المهمّة الجديرة بلفت الانظار، والمنبّهة الى التحسينات الادارية والاقتصادية، وعليها يتوقف اساس الملك والتشجيع على استثماره.

لقد قامت الدوائر العقارية والمساحة بوضع الخرائط والمستندات العائدة للمساحة وللسجل العقاري اي لنظام نشر الحقوق العينيّة الجديد الذي حلّ محلّ النظام القديم (الدفترخانة) في سورية، والعائدة لاعمال ضمّ الاراضي المتجزئة والمنتشرة وتقسيم اراضي المشاع، وخرائط تفاضل الارتفاع منظمةً خصيصاً من قبل المساحة لاعداد الاراضي الزراعية للريّ ولتجفيف المستنقعات ولتسهيل

المواصلات وطرق الاستثمار وغيرها ، ولتجهيز واتساع المدن.

هذه الخرائط معروضة على جدران البهو الكبير المخصص للزراعة . وقفتُ تجاهها انظر تارةً الى الخرائط ، وتارةً الى الصور الفوتوغرافية لبعض مناظر سورية وللحياة الزراعية ، والى خرائط سورية القديمة ، والى صور اخذت بالطيارة من امثال ما اخذ منها لاحصاء وتحديد الاملاك.

وكانت بيدي اوراق المذكرة والقلم أدوّن رؤوس اقلام ما سيساعدني على تحرير مقالي ، واذا بامرأة مع بنيها وهي ملتحفة بالحبرة السوداء ، فاسفرت عن وجهها والقت نظرةً على دفتري وقالت : « لقد احسنت » . ومرّ شاب قروي وقال : « يكتب لكي يرسل التعليمات الى فرنسة » . فابتسمت لتلك الخواطر البديهيّة ، واستحسنتها لاني رأيت فيها لسان حال الواقع وهو ان الشعب مرتاح فرح لما يراه في المعرض كأنه يلمس بيده الخيرات المكنوزة في هذه البلاد العزيزة فيتشجع لرؤيته شيئاً منها ويعتبرها جديرة بلفت انظار العالم ! وفي الحقيقة ان ادارة المعرض نالت ما توخته من جهودها ، اذ علّمت الشعب ان يعرف ما تحويه بلاده من مرافق الرزق والثروة فيسعى في استنباطها.

انتشار المعارف في سورية

شبيهة بغرفة الزراعة هي الغرفة المخصّصة لمعرض التعليم ، وقد ضربت على حيطانها لوائح وخارطات واحصائيات ، وهناك على المنصّات نماذج من تصاوير وفروض مدرسية عرضت تشجيعاً لاصحابها وتكاهةً للناظرين. ووزّعت الادارة كراريس عرضت فيها التعليمات الاجمالية المفيدة للوقوف على حركة الثقافة . اخذنا عنها ما رأيناه موافقاً هذا المقام :

تتألف المدارس في اراضي الجمهورية السورية من عامة ، ومرجعها الى وزارة المعارف ، وخاصة ، ومرجعها الجمعيات او الاشخاص ؛ ومن مدارس قرآنية ، وغيرها من مدارس اجنبية ، وفي عدادها المدارس الافرنسية.

تلك المدارس تقدّمت كثيراً في المدة الواقعة بعد الحرب الكبرى ، وفي برهة ١٢ عاماً اصبح عدد تلاميذها ثلاثة امثال ما كان عليه (الا في المدارس

القرآنية) . كان في السنة ١٩٢٤ : ١٢٦ ٢٨ فصار سنة ١٩٣٥ : ٨٣١ ٨٤ واذا أضيف الى ذلك مجموع عدد المدارس القرآنية كان عدد التلاميذ سنة ١٩٢٤ : ٠٠٠ ٣٩ ، وسنة ١٩٣٥ : ٠٠٠ ١١٧ فاربى ثلاثة اضعاف على ما كان عليه بمدة ١٢ سنة .

وان ازدياد عدد التلاميذ الملحوظ منذ عشر سنوات لحق على السواء مدارس الذكور ومدارس الاناث ، وظهر عند جميع الطوائف ، فكان مجموعهم (سوى المدارس القرآنية) :

في سنة ١٩٢٩ : ٩٠٠ ٣٦ مسلم ، و٢٠٠ ٢٣ مسيحي و٢٣٠٠ اسرائيلي ، وفي سنة ١٩٣٥ : ٩٠٠ ٤٩ مسلم ، و٢٠٠ ٣١ مسيحي ، و٢٨٠٠ اسرائيلي ، فكان الازدياد ٣٣ بالمئة للاسلام ، و٣٠ بالمئة للمسيحيين ، و٢١ بالمئة للاسرائيليين .

ومن الملحوظ ان المدارس الافرنسية فيما كانت تعدّ سنة ١٩٢٥ : ٨٢٣٩ تلميذاً ، عدّت سنة ١٩٣٥ : ١٢ ١٣٨

وجدير بالذكر ان عدد التلاميذ المحصى سنة ١٩٣٥ بلغ نمواً ٣٥٤ بالمئة بالنسبة الى العدد المسجل سنة ١٩١٣ في حولية السلطنة العثمانية لمساحة البلاد نفسها .

وكان عدد المدارس الابتدائية ٢١٢ مدرسة سنة ١٩٢٢ ، فصار ٣١٢ سنة ١٩٣٦ ، وفي زهاء عشر سنوات ارتفع عدد المعلمين والمعلمات من ٦٠٠ الى ٩٣٥

فان كان مستوى التمدين يعرف من قلة عدد الأميين ، اتضح من اللوائح السابقة ان البلاد السورية ارتفعت الى درجة في المعارف تحلها في مكانة لا يكاد يسبقها اليها قطر من الاقطار الناطقة باللغة العربية سوى لبنان .

ولفت نظرنا في السرادق المخصص لمعروضات وزارة المعارف ، دكة خشبية عُرضت فيها بعض المخطوطات العربية القديمة ، على اننا كنا نتوقع مشاهدة غيرها مما يليق بمعرض دمشق ، العاصمة السورية الحالية والأموية سابقاً ، وما كان اسهل على الادارة من الحصول على بعض النسخ القرآنية فتعرضها لجمال كتابتها وتنسيقها .

ان في الكتب المعروضة مجموعة المطبعة الكاثوليكية ، وفيها المطبوعات العربية الشاهدة على الجهود التي بذلها المرسلون اليسوعيون في سبيل نشر القواميس والكتب الادبية واللغوية التي شاعت في العالم العربي آلة للدرس والتدريس .

اليك نماذج المؤلفات المدرسية ، وواجهات زجاجية ورفوف ولوحات عُرضت عليها الاشغال اليدوية والرسوم واشغال الخياطات لمختلف الصفوف ، فهي عنوان اجتهاد مدارس الاناث في دمشق وحلب ، وهناك ايضاً دكك خشبية لعرض المصنوعات الخشبية والحديدية في مدارس الصنائع في دمشق وحلب .

الاثريات

من الشمال السوري ، وتدمر ، والصالحية ، وحمص ، حُملت المعروضات ، ونُضِّدت في القسم الاثري ، وهو المعرض الدائم الذي تفاخر به منذ الآن مدينة دمشق متحفاً باقياً على مدى الايام حجةً للزوّار ومفخرةً للسكان .

العهد السومري او الميتاني ، والحثي ، والاشوري ، ممثلٌ في تقليدات انصابه وعادياته الشهيرة . من زار اللوفر ، والمتحف البريطاني ، ومتحف مصر الاثري ، لا يتالك ان يرى البون الشاسع بين ما رآه هناك وبين ما يجده في دمشق . ولكن قد نبخس العلم حقَّه ، والجهودَ قيمتها ، ان لم نقف معجبين امام الآثار المخططة فيها أصول تاريخ سورية . فالشكر كل الشكر للذين حفروا ونقبوا واخرجوا للنور بقايا العزّ القديم ايامَ كانت بلادنا همزة وصل بين مدنيّتي مصر وبابل . فان زرت المعرض لا تنسَ ان تحيّ ذكرها في انصاب الاشوري الحامل الاساور ، وفي التحف الفنية الدالة على حياة الاقدمين الدينية .

مبيب هو القبر التدمري المنحوت في اقبية المتحف الاثري ترى فيه تماثيل اسرة بكاملها . لم نقرأ عليها ذكر اصلها وفصلها ، ولكن ملامح العظمة والغنى بيّنة في منطقات الثياب ودقة صنع المصوغات . هل كانت تلك الاسرة تمتُّ الى زينب ملكة تدمر ؟ او هل هي اسرتها بالذات ؟ او هل هي عائلة اغنياء

التدمريين الذين كانوا يتبضون على زمام حركة النقل والقافلات بين خليج فارس والبحر المتوسط والبحر الاحمر في القرن الثالث الميلادي ؟

لما زرنا انقاض دورا اوروبوس سنة ١٩٢٩ شاهدنا بقايا عديدة من تلك المدينة الآرامية اليونانية التي توارت تحت الرمال مدة الاجيال ، الى ان كشف عن اهميتها الجيش الانكليزي ايام الحرب العظمى ، وهو يحفر الخنادق ، فبرزت للنور وافادت العلماء بمعلومات ادت بهم الى تشبيهها بپمپي وهركولانوم لان مدينة برمتها انبعثت من رمالها وفيها الآثار الوثنية واليهودية والمسيحية وكتابات كشفت النقاب عن صفحات مجهولة من تاريخ احتلال الرومان بلادنا في القرون المسيحية الاولى [1].

وان من اروع الآثار المكتشف عليها في دورا الكنيس اليهودي الراقي عهده الى السنة ٥٥٦ من التاريخ السلوقي و٢٤٤ من التاريخ المسيحي ، ابرزته الى النور ، سنة ١٩٣٣، جامعة يال الاميركانية بالتضامن مع مجمع الكتابات والآداب الجيلة الافرنسي ، في الحملة العلمية السادسة التي قام بها رجال البعثة العلمية المعهود اليهم بالتنقيب والحفر في دورا اوروبوس.

لقد نُقل الكنيس بكماله من موضعه الاصلي الى معرض الشام . كيف وُفق رجال البعثة الى قسط واجهة الجدران والسقف ومساحتها تراهي ٢٥٠ متراً مربعاً ، وحملها الى معرض دمشق ، وردّها الى اصلها حتى يخيّل للناظرين انها شيّدت منذ عهد قريب منا ، والوانها تدهش بزهائها ! ان ذلك لامر يحدث عنه رجال البناء والتنقيب. اما الآن فحسبنا النظر الى الكنيس كما بلغ الينا ووصفه ، معوّلين على ما كتبه عنه الكونت دومنيل دو بويسون احد رجال البعثة ، في المجلة الكتابية (Revue Biblique) (ص ١٠٥ سنة ١٩٣٤) وخاصة في مجلة الايلوستراسيون (٢٩ تموز ١٩٣٣) قال :

الكنيس

شمالي باب تدمر ، وبالقرب من السور ، كشف الحفر عن الكنيس في

١) راجع المشرق : من حلب الى الصالحية [١٩٣١] ٤٢٤ – ٤٣٤

الصالحية سنة ١٩٣٣.

كانوا اذا قدموا من الشارع ، اي من الشرق ، وجدوا اولاً فناء واسعاً عرضه اوسع من طوله ، يحيط به ، على اليمين ، بعض البنايات ، وبئر او صهريج مغطى بحجر ، وعلى اليسار ركن مربع شبيه بالمذابح الوثنية المعروفة في دورا . ولا شكّ ان هناك حوضاً للوضوء . وكانوا من ذلك الفناء الكبير يجتازون الى فناء ثانٍ مربع الزوايا يحف باجنابه الثلاثة عواميد تقلّد الفن الدوركي (dorique) وكان تحت المدخل الغربي بابا الهيكل الكبير والصغير.

والهيكل او الكنيس بهو عرضه ١٣٫٧٠ متراً ، وعمقه الى صدره ستة امتار ، وعلوه ٦٫٥٠ امتار.

وكان فيه مقعد او بنك مزدوج مقترب في اسفل الجدار حول المعبد ومتقطع عند البابين ، وفي صدر المكان المحراب المزدان بعمودين مغطى عند سقفه بصدف جميل جصي ، والغرض من المحراب على ما ظهر ، ان يكون موضعاً للكتب المقدسة.

اما التصاوير في اعالي المحراب فقد بقيت على رونقها الاصلي بالرغم من عمرها الطويل ؛ ترى فيها عند الشمال المنارة وسرجها السبعة ، والنخل ، والاترج ؛ وفي الوسط خزانة ملف اسفار الشريعة ؛ وعلى اليمين صورة ذبيحة ابراهيم اشخاصها داروا ظهورهم لئلا تبان وجوههم للناظرين ، فيحتجبون تورّعاً لان اليهود كانوا يتحاشون رسم الوجوه البشرية مبالغين بحفظ الوصية « لا يتخذوا لهم معبودات منحوتة او مصورة ».

وكانت جدر الكنيس مغشاة بالتصاوير ، وهي على رونق وجمال يوهم انها من صنع الامس ، على اكثرها تواقيع باللغة الآرامية او اليونانية او البهلوية (الايرانية القديمة) من درسها وتحليل خطها اهتدى العلماء الى معرفة جنسية المصورين . فكان احدهم ارامياً لانه كتب بالارامية او باليونانية على نسق غير يوناني ، فصوّر صورة خروج بني اسرائيل الكبرى ، وصورة موسى والعليقة الملتهبة ؛ وحلم يعقوب ، والتقاء سليمان بملكة سبا ، واسترحى الكتاب المقدس بتأليف المشاهد ، ولوّن جسم المصوّرين بلون احمر

غامق . اما المصوّر الثاني فقد يكون يونانياً . لم يرسم الا كلبةً واحدة يونانية ، لكنه صوّر الاشخاص بظاهر تخالف كل المخالفة تصاوير الفنان الآرامي فوسم الوجوه بسيماء التقوى والتخشع وذكرنا بالايقونات اليونانية وله من رونق اللون ودقة استعماله ما ليس لزميله الآرامي. ومصداق لكلامنا مشهد هارون وموسى عند تأسيسه عيد المظال وصورة هيكل اورشليم، والتابوت، وارميا. اما المصوّر الثالث فقد كتب بالبهلوية واشتغل في تصوير اخبار ايليا ، فخصّ ارملة صرفتا بصورتين ، وقيامة الموتى بصورة ، طبقاً لنبوة حزقيال ولم يكتف ضميره على استعارة مواضيع الصور من الفن المدرسي المستوحي الاشياء من المشاهد المنظورة في الواقع وفي حقيقة الامور ، فوهبها حياةً ذكرت بتصاوير السينما ، واتى بما لم يأته المصوّر في ذبيحة ابراهيم، المحافظ على مراسيم الناموس والتورّع عن ابراز الوجوه ، فلم يحسن الالتفات الى درس الحركات الطبيعية واتخاذها العلة المثلى لاعماله.

قد يكون هؤلاء المصوّرون قد تثقفوا بالثقافة اليونانية ولكن في رعاية وتعاليم التوراة سواء. أكانوا يهود او غير يهود فقد يهتدون بارشادات الحاخام الى تأليف تصاويرهم طبقاً لمشارب بني اسرائيل وتقاليدهم.

اما سقف الكنيس فصنع من الخشاب عريضة تتخللها لوحات محورة مصفوفة جمع منها ٢١٤ لوحة ودرست مواضيعها فكانت اثاراً وازهاراً وحيوانات طبيعية وخيالية وروؤس نساء ومنها ثلاث لوحات عليها كتابات يونانية دلّت على اسماء المحسنين ، ولوحتان عليها كتابات آرامية جاء في احداها العبارات التالية :

اني بنيت هذا المقام سنة ٥٥٦ وهي الثانية لفيليوس قيصر على ايام سوتيل الكاهن ابن بداليو اذ كان حيرًا.

وان تاك السنة المؤرخة من العهد السلوقي تطابق ٢٤٤ — ٢٤٥ ميلادية.

بالقرب من الكنيس اكتشفوا قطعتين من ورق البردى فيهما صلاة باللغة العبرية بدؤها « مبارك انت ملك العالم ».

اما فيليوس فهو القيصر العربي الشهير بمحاربته الفرس ودفاعه عن حدود

المملكة الرومانية ، وقد كانت أمه مسيحية.

***

طفنا معرض دمشق بباحاته وبناياته ومتزهاته،واستأنسنا لعدد زوّاره المديد الوافد اليه من قريب ومن بعيد ، وأعجبنا بمروضاته من صناعيات، وزراعيات، واحصائيات، واثريات.وهذا المعرض اتى بالغاية المنشودة ليس ادبيةً فقط ولكن ماديةً ايضاً اذ قيل ان مداخيله اليومية بلغت ألوف الفرنكات ، ولا شك ان موسمه هذا يدعو الى عقد امثاله في المستقبل ، واننا لم نبخس المشروع مديحنا كما اننا لم نبخس القراء وصف ما رأيناه وان كنا عنه مقصّرين[1].

حرّرنا هذه الاسطر في منتصف آب،وفي غضونها ودعوا المعرض في دمشق وختموه.فهل من نظرة اجماليـة نستوحي منها بعض الملاحظات المفيدة لمعرض المستقبل ؟

ان ما يجب ان يؤخذ اولا على ادارة المعرض شيء من الاهمال في القيام ببعض الواجبات ، واشياء من سوء المعاملة تركت الأثر الأليم في نفوس ارباب الصناعات من الذين قاموا ببعض الاشغال لحساب المعرض[2].

ثم اننا لا نلام في القول ان الترتيب في غرفة الآثار والزراعة والتعليم وفي المتحف كان احسن منـه في المدرسة التجهيزية حيث اكتظت المواد في الغرف اكتظاظ السلع في الحوانيت وتتابعت الغرف تتابع الحوانيت في السوق ، من الاقمشة الى المفروشات الى الاحذية فالحراثر الخ.

ان يكن في بلادنا عجائب تستهوي قلوب الزوّار فانما هي اطوارها التاريخية وآثارها الملخّصة مع اخبار اهل العالم ، تاريخ الجنس البشري في اهم شعوبه - وانه قد كان في وسع منظمي المعرض ان يراعوا حقوق الأزمنة فيقف الزائر على فصول تاريخ سورية ، ليس في العهد الحيّ والتدمري فقط ولكن في سائر

---

١) تركنا لغيرنا الكلام في شؤون الخيل واستعراضها وسباقها ،.وقيل ان سوقها كانت موردًا من اربح موارد المعرض.

٢) راجع ، في ذلك ، جريدة البشير ١٠ ايلول ١٩٣٦

عصوره ايضاً . لقد رأينا في المعروضات خوذة عليها آثار الفن المغولي ، فهي من عهد تيمورلنك ، واسلحة ارتقى عهدها الى زمن صلاح الدين والعلييين . لم لم توضع في محلات خاصة مع الاشارة الى عهدها فتتابع في غرف متسلسلة تساعد على التنقل بين عصر وعصر على النسق الجاري في متاحف الافرنج ومعارضهم .

وهناك ناحية من نواحي حياتنا التاريخية والاجتماعية لا مثيل لها في امة من الامم واسرها فريد منوط بحالة بلادنا ، مهد الاديان التوحيدية وعش غيرها من الاديان التي نقب عنها العلماء وحددوا اوضاعها .

أتغلطُ في القول ان غرفاً متسلسلة او بيراً واحداً كبيراً تعرض فيه بالترتيب العلمي التاريخي اهمّ آثار بلادنا الدينية — وان تجاوزت حدود سورية التاريخية والسياسية — مصدّرة بجبولة بالجص مع ما يحتاج اليه الناظر للوقوف على هويتها منذ المعابد الفينيقية الى هيكل بعلبك ، الى هيكل اورشليم ، الى كنيسة القيامة ، الى قبة الصخرة ، وجامع بني امية ، الى كنيسة طرطوس الملوكية ، وجامع زكريا في حلب ، الى مستحدثات البنايات الدينية في القرون القريبة عهداً منا ، أتغلط في القول ان كل ذلك قد يكون صورةً فريدة يمكن تفصيلها بالشواهد اخذاً عن التعليمات التاريخية لتعريف الزوار بالطوائف والمذاهب والاديان التي امتازت بها بلادنا ؟

لقد عُرضتْ في دمشق صناعات دار الايتام الحلبية وليم لم تعرض من امثالها غيرها مما تصنعه ايدي الايتام وما اكثر عددهم في ديورة الرهبان والراهبات ليس فقط في حلب ولكن في سائر الانحاء السورية !

ان المعرض وضع بالانعزال عن عالم السياسة وفي جو الخلاء وسيلم ، ولكن لم يراع فيه الحياد المطلق في التوزيع والتنسيق من حيث لا تطغي فكرة على فكرة ومادة على مادة فيزورّ عقل السذج من النظر اليها .

أمِنَ الفطنة والسياسة الدعوة بالاوراق المعلقة على جدران المعرض الى مقاطعة الاقمشة الاجنبية فيهيب ذلك بالزوار الاجانب الى التشاؤم في مستقبل علاقاتهم معنا .

واذا صح ما سمعناه من انّ احد الزوار الافرنج اشترى كوفية من الحرائر المعروضة بين مصنوعات الشام ثم مضى بها وتحققها فرأى عليها علامة محل بون مارشه الباريسي !... أفيحل الى بلاده ذكر دمشق مزوّرًا !

لا انسى ان المعرض لـرق عامة فلا بد من عرض واستعراض ليس فقط ما انتجته البلاد بل وما استحضرته ايضا ، ولكن على شرط ان يعرف كل شيء باصله واذ ان نصف المعروضات كانت من اصل اجنبي او كادت فلا اقـل من الترحاب باصحابها كما رحبنا باعمالهم ومصنوعاتهم . فلا يبدو من العارضين مـا يزورّ له نظر الاجانب.

يا ليت تلك الروح الطيبة تنمو مع الايام فتخفق لها اعلام الشرق والغرب بين علمي سورية ولبنان في معرض الغد ان شاء الله !